منارات

manarat

ملحق أسبوعي يصدر عن مؤسسة الزمان للإعلام والثقافة والفنون

فخري كريم

رئيس مجلس الادارة رئيس التحرير

"20عاماً من التعبير الحر والمسؤولية الوطنية"

www.almadasupplements.com

العدد (5676) السنة الحادية والعشرون - الأربعاء (22) أيار 2024

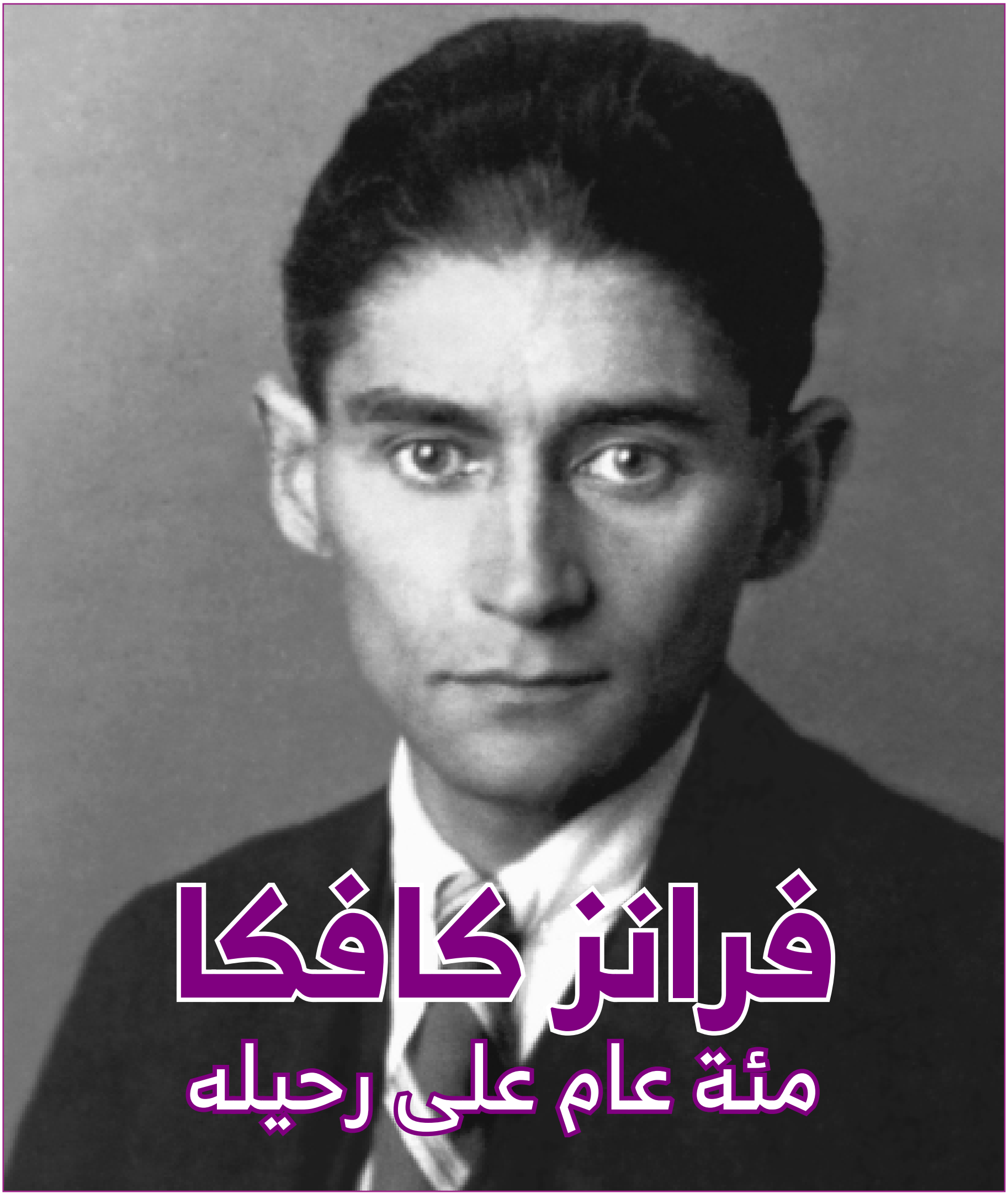

فرانز كافكا

مئة عام على رحيله

رسائل فرانز كافكا الأخيرة

جـــودت هـوشـيـار

حين توفي فرانز كافكا في عام ١٩٢٤ لم يكن قد نشر من نتاجاته سوى بضع مجموعات صغيرة من القصص القصيرة أما رواياته وقصصه الطويلة (وكذلك قصصه القصيرة التي لم تنشر خلال حياته) ويومياته ورسائله فقد نشرت تباعا بعد وفاته وقد استغرق نشر مؤلفاته الكاملة حوالى خمسين عاما(١٩٢٤ – ١٩٧٤) من الجهد المتواصل لعدد كبير من الباحثين والناشرين. فقد نشرت رواية "المحاكمة" في عام ١٩٢٥ ورواية "القلعة" في ١٩٢٦ ورواية "أميركا" في ١٩٢٧. ثم صدر مجلد يضم مجموعة كبيرة من قصصه الطويلة والقصيرة الناجزة، سواء تلك التي نشرت خلال حياة الكاتب أو بقيت على شكل مخطوطات ضمن أرشيفه وأعقب ذلك صدور مجلد يضم مسودات قصته الطويلة "وصف معركة".

اما بعد الحرب العالمية الثانية فقد تم نشر قصته الطويلة "استعدادات لحفلة زفاف في الريف" مع مجموعة من رسائله ويومياته ومنها رسالته الشهيرة الى والده أما رسائله الى النساء اللواتي لعبن أدوارا" مهمة في حياته فقد صدرت في مجلدات متتابعة ومستقلة كل مجلد يحتوي على رسائله الموجهة الى واحدة منهن.

فقد صدر كتاب "رسائل إلى ميلينا يسينسكايا" في عام ١٩٥٢ وكتاب "رسائل إلى فيليتس باوار" في عام ١٩٦٧ وأخيرا "رسائل إلى اوتلا" في ١٩٧٤ ويتألف من (٢٤٨) صفحة. والكتاب الأخير يحتوي على الرسائل العائلية ومعظمها موجهة إلى شقيقته أوتلا وعدة رسائل الى زوجته (دورا) ولا يتضمن الكتاب رسائل كافكا الى شقيقاته الأخريات ويرجح أنها فقدت ولا نجد في الكتاب أي جواب من أجوبة اوتلا على رسائل أخيها (إن كانت ثمة أصلا "أجوبة" ما) أي أنها رسائل من جانب واحد وأشبه بالمونولوج الداخلي من طرف واحد بدلا" من الحوار بين المرسل والمتلقي.

وعلى الرغم من أن كافكا قد ولد وعاش طوال حياته في العاصمة الجيكية براغ الا أن مؤلفاته جميعها مدونة باللغة الألمانية والتي كانت اللغة الرسمية في البلاد قبل الحرب العالمية الأولى. كان كافكا يتكلم اللغة الجيكية العامية ولكنه كان في أعماق نفسه يشعر بأن اللغة الألمانية أغنى وأرحب وأنه يستطيع التعبير عن نفسه باللغة الألمانية على نحو أعمق وأدق وعلى الرغم من كونه يهوديا" الا انه لم يكن يتكلم العبرية أو يهتم بها ولم يحاول أن يتعلمها فقد كانت اللغة عنده وسيلة تعبير عن النفس في المقام الأول ولم تستهويه قط الأفكار الدينية او القومية الضيقة وكان يتجاهل اى مسعى من هذا القبيل مهما كان مصدره(على النقيض من مزاعم بعض النقاد العرب ومحاولتهم الصاق تهمة الصهيونية بكافكا زورا و بهتانا نتيجةللتأويل الخاطى المتعمد لبعض قصصه مما يدل دلالة قاطعة على انحيازهم الفاضح و مدى سذاجة افكارهم المسبقة وعدم استيعابهم لأدب كافكا وعجزهم عن فهم عالمه الروحى.ولكن هذا موضوع يستحق وقفة اطول و ربما سنكرس له مقالا مستقلا). ان الرسائل التى كتبها كافكا فى ايامه الأخيرة طافحة بالألم والحزن والأسى العميق وفيها مشاهد و صور نابضة بالحياة و تترك فى نفس القارىء انطباعا قويا وتهز وجدانه و مشاعره لأنها تمس شغاف قلب كل انسان معذب يدرك مأساة الوجود البشرى العابر وقسوة الحياة ورغم ان نتاجات كافكا بأسرها انما هى مشاهد و صور حية تعبر عن الحياة وتعكس الواقع المعاش من خلال رؤيته الفنية الا انها تبدو وكأنها نتاجات ابداعية متكاملة، ذلك لأن حياة أي إنسان – جزء مقتطع من الحياة ولكنه متكامل في حد ذاته. ثم أن كافكا ومهما كان الموضوع الذي يكتب عنه فأنه في حقيقة الأمر يتحدث الى نفسه وعلاقته بالواقع الأجتماعي الذي كان يعيش فيه والشيء الذي لم يكن يعبر عنه حتى النهاية في رواياته وقصصه نجده في مسودات مؤلفاته وفى ويومياته ورسائله، فقد كان المحور الوحيد الذي تدور حوله أفكاره وأحاسيسه هو المصير المأساوي للكاتب نفسه بكل مافيه من معاناة وتوتر نفسي وعذاب وألم. وهذا المصير هو الذي يوحد على نحو متكامل كل ما يسرده الكاتب في موضوع واحد كبير هو اغتراب الأنسان في مجتمع تعج بالمتناقضات و المفارقات الحياتية. لم يكن إغتراب كافكا إغترابا طبقيا" حسب المفهوم الماركسي أي إغتراب العامل عن قوى الأنتاج ووسائله وعلاقاته بسبب عدم حصوله الا على جزء هامشي من ثمار عمله وجهده ذلك لأن الأغتراب الكافكوى اغتراب روحى عميق الغور لا يفارقه الا فى بعض اللحظات القصيرة البهيجة وكانت مثل هذه اللحظات نادرة فى حياة كافكا. لم يكن بوسع كافكا أن يكون جزءا" من آلة يتحكم فيها زمرة من النفعين والوصوليين والأنتهازيين الذين هم على استعداد دائما أن يفعلوا أي شيء من أجل الحصول على المال والنفوذ السياسى والأجتماعى والتسلل الى مواقع السلطة بطرق ملتوية واستغلالها لمصالحهم الأنانية. هؤلاء الآخرون هم الحجيم – على حد قول كافكا وقد ذهبت كلمات كافكا الدقيقة هذه، مذهب المثل السائر أو القول المأثور– لم يكن كافكا فيلسوفا" ولا وجود لكلمة "الأغتراب" في مؤلفاته ويومياته ورسائله ولم يستعمله قط في أحاديثه – كما يقول أصدقاؤه المقربون – ولم يحاول أن يدرس هذا المفهوم الفلسفي ولكنه كان انسانا" رائعا" وكاتبا" مبدعا" – وأكاد أقول عظيما" – يدرك إن للأغتراب صورا" وأشكالا" عديدة ولكنها جميعا" معادية للأنسان. ولقد استطاع أن يجسد فنيا" هذا المفهوم على نحو أوضح وأعمق وأشمل من أي فيلسوف وهذا التجسيد ساخر حينا" ومأساوي حينا" آخر ولكنه دقيق دائما" ويكشف كافكا ببصيرته الثاقبة وجرأته الفنية المعهودة النقاب عن وجه البيروقراطية الحاكمة ويركز على تلك الظواهر التي كانت تنخر في جسد المجتمع الجيكي والتي تتكرر أحيانا" كثيرة في أي مجتمع قائم على استغلال الأنسان للأنسان ورسائله الى أخته تضيف ملامح جديدة الى صور المجتمع الجيكي والانساني عموما" التي رسمها عبر نتاجاته الروائية والقصصية.

لم يستطع كافكا قط أن ينسجم مع مجتمع مشوه تسوده العلاقات اللاإنسانية لأن سريرته النقية واعتزازه بالقيم الأخلاقية والكرامة الأنسانية وأمور أخرى كثيرة كانت ترغمه على الأبتعاد عن الوسط الفاسد الذي كان يحيط به وتخلق نوعا" من الأنفصام الروحي بينه وبين الآخرين. كان البيروقراطيون يقولون عنه، أنه إنسان "غير طبيعي" ولكن كافكا علق على هذا الزعم الباطل بسخريته اللاذعة قائلا":

"أن تكون انسانا" (غير طبيعي) ليس أسوأ ما في الحياة لأن الناس يعتبرون الحرب العالمية أمرا" طبيعيا".

ولقد ظلت هذه التهمة تلاحق الكاتب حتى بعد وفاته بسنوات طويلة وما يزال البعض يعتبر كافكا وأبطال رواياته وقصصه أناسا" غير طبيعين. ولكن ما هي المعايير الطبيعية للمجتمعات المريضة: أنها ضياع القيم الروحية وعبادة المال والتفنن في طرق الحصول عليه مهما كانت ملتوية ووضيعة. لم يكن بوسع كافكا أن يتخلى عن مبادئه وقيمه الأنسانية النبيلة وأن يتسابق مع الناس "الطبيعيين" الذين لاهم لهم في الحياة الا المال وما يوفره من قوة ونفوذ وسلطان.

كانت(ميلينا يسينسكايا) تفهم كافكا أفضل من اي انسان آخر وكان كافكا بدوره يفتح لها قلبه ويصارحها بكل ما يدور في خلده من أفكار ومشاعر. تقول ميلينا: "هذا الذي يعتبره الناس (غير طبيعي) في شخصية فرانز، إنما هو في الواقع أحسن ما يتميز به من فضائل. أنا أدرك أنه يقاوم، ليس الحياة ذاتها بل فقط هذا الأسلوب في الحياة."

وكما يبدو من رسائل كافكا الى أخته فأن والد كافكا لم يفهم ابنه قط. لقد كان – أي والد كافكا – رجلا" مستبدا" وعدوانيا" لم يكن أحد يسلم من لسانه الجارح وسلوكه الخشن. كان من عائلة فقيرة ولكنه استطاع بأستخدام الأساليب (الطبيعية) لمجتمعه أن يكون ثروة لابأس بها

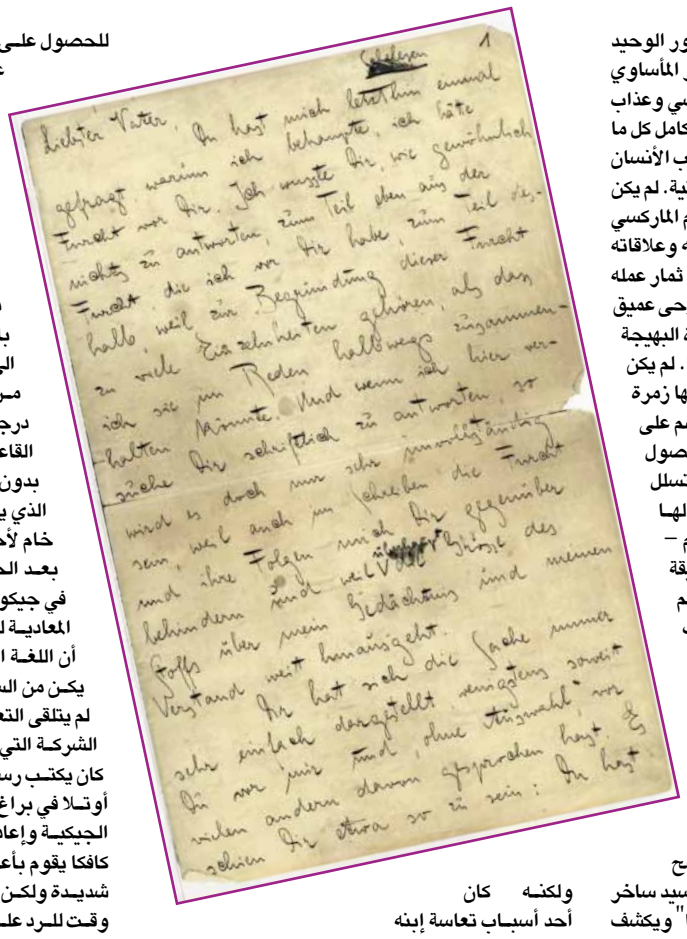

ولكنه كان
أحد أسباب تعاسة إبنه
فرانز في الحياة. ويحدثنا الكاتب نفسه
في هذه الرسائل وبمرارة وسخرية لاذعتين عن سلوك والده مع الناس والقيم الزائفة التي كان يؤمن بها والرياء الذي كان سائدا" في الوسط الأجتماعي لعائلته. كان كافكا يحمل شهادة الدكتوراه في الحقوق ويعمل موظفا" في شركة تأمين على حياة العمال من حوادث العمل والأنتاج وتقتضي واجباته الوظيفية قيامه بتفتيش المعامل والتأكد من تطبيق قواعد السلامة المهنية فيها. كان حريصا" أشد الحرص على أداء مهام وظيفته بكل جد ودقة و أخلاص لذا لم يكن من المستغرب أن يرتقي السلم الوظيفي بسرعة ويحتل وظيفة مهمة في الشركة التي كان يعمل بها على الرغم من كل المعوقات.

كان والداه يريدان منه أن يمارس التجارة في أوقات فراغه غير أنه كان يعشق الأدب القصصي ويجد فيه خير وسيلة للتعبير عن النفس ومقاومة شرور الواقع الاجتماعي. كان يعود من عمله بعد انتهاء الدوام الرسمي مرهقا"، ثم يأخذ قسطا" من الراحة قبل أن يجلس أمام طاولة الكتابة. كان يندمج في عملية الخلق الفني وينسى ماحوله، ويظل يكتب الى ساعة متأخرة من الليل وأحيانا" حتى فجر اليوم التالي ونتيجة لهذا الاجهاد المستمر، أصيب – وهو في الرابعة والثلاثين من عمره – بمرض التدرن الرئوي. ونحن نعرف تفاصيل ذلك من رسالته المؤرخة في ١٩١٧/٨/٢٩ الموجهة الى أوتلا. كتب كافكا إلى أخته يقول: "قبل ثلاثة أسابيع أصبت بنزيف رئوي." ومنذ هذا التأريخ بدأت رحلة كافكا المؤلمة مع المرض. وأخذ يتنقل – طلبا" للعلاج – من مصح الى مصح. كان بحاجة ماسة الى التغذية الجيدة والهواء الطلق والراحة لنفسية والهدوء التي كان من المفروض أن توفرها المصحات الطبية الواقعة خارج العاصمة براغ. ولم يكن في ذلك الزمان علاج لمرض السل غير هذا. ولكي لايفصل من وظيفته – مصدر رزقه الوحيد – كان عليه أن يحصل على اجازات مرضية طويلة ومتكررة بموافقة مدير الشركة التي كان يعمل فيها. وبينما كان كافكا راقدا" في المصح، فأن أخته أوتلا هي التي كانت تسعى للحصول على الأجازات المطلوبة. كما يتضح لنا ذلك من جواب كافكا على احدى رسائلها، كانت اوتلا تتذمر من غطرسة مدير الشركة وتشعر بالمذلة والمهانة وهي تقف امامه بينما هو منهمك في قراءة الطلب الجد يد الذي تقدمت به للحصول على اجازة جديدة لأخيها ولم يكلف المديرنفسه عناء رفع رأسه ليلقى نظرة على أوتلا الواقفة في انتظار قراره. كان كافكا خبيرا" بسايكولوجية البيروقراطيين فكتب الى أخته، يشرح لها الأمر: "أما أن المدير لم يرفع رأسه للنظر اليك، فهذا لا يدل على الاطلاق على الاستياء. كان ينبغي لي أن أهيئك لهذا الموقف فأسلوب المدير هو أسلوب يستخدمه بعض الخطباء حين يرفض الأستماع بالأنطباع الذي تتركه كلماته لدى الحضور الى القاعة لأن مثل هذا الخطيب الجيد – أو من يعتبر نفسه كذلك – واثق من نفسه الى درجة أنه لايشعر بالحاجة الى القاء نظرة على القاعة، أو الى مثل هذه الشحنة الأضافية فهو بدون ذلك، يدرك تماما" مدى قوته." هذا المشهد الذي يصفه كافكا في احدى رسائله أشبه بمادة خام لأحدى مشاهد رواية "القلعة".

بعد الحرب العالمية الاولى تغير النظام الملكي في جيكوسلوفاكيا ولكن البيروقراطية وطقوسها المعادية للأنسان ظلت كما هي ماعدا تغيير واحد هو أن اللغة الجيكية أصبحت اللغة الرسمية للبلاد. لم يكن من السهل على كافكا الكتابة باللغة الجيكية التي لم يتلقى التعليم المدرسي بها لذا فأن مراسلاته مع ادارة الشركة التي كان يعمل بها، كانت تسلك طريقا" طويلا".

كان يكتب رسائله باللغة الالمانية ثم يرسلها الى أخته أوتلا في براغ ليقوم زوجها الجيكي بترجمتها الى اللغة الجيكية وإعادته الى كافكا الراقد في المصح ومن ثم كان كافكا يقوم بأعادة كتابة النص الجيكي بخط يده وبعناية شديدة ولكن لم يكن لدى مدير الشركة البيروقراطي وقت للرد على رسائل موظف يموت ببطأ على فراش المرض. كان كافكا يأمل أن يتلقى جوابا" على رسائله العديدة والتي كان يطلب فيها منحه إجازة طويلة ولكن طال انتظاره دون جدوى فقرر أن يكتب بنفسه ردا" على رسائله بدلا" من مدير الشركة. كان ردا من نسج خيال كافكا. جاء في هذه الرسالة الجوابية الخيالية ما يلي:

"أيها الزميل العزيز! طرأت في ذهني ليلة أمس فكرة جيدة وهي إن عليك أن تقضي في الهواء الطلق أطول وقت ممكن وأناشدك أن تستمتع بأجازتك الطويلة وأن لا تكلف نفسك عناء كتابة اي طلب جديد على الطريقة الجيكية. ارسل لي فقط برقية من كلمة واحدة "نعم" وستحصل على الأجازة السنوية المطلوبة فورا وبذلك لن تحمل اوتلا وزوجها مشقة متابعة طلباتك. أنا بأنتظار برقيتك وأتمنى لك الشفاء العاجل وأشكرك من صميم قلبي... الخ".

لم تكن الاجواء في مصح (ماتيلياري) جيدة. كانت المشاكل اليومية الصغيرة تثير أعصاب الكاتب المريض: (الضجيج، الخدمة السيئة، رائحة المطبخ القريب من غرفته) ولكن حتى في ظل هذه الاجواء الكئيبة كان كافكا يبحث عن بهجة الحياة المفقودة وظل كذلك إلى آخر يوم في حياته.

كانت رسائله الى أوتلا مرحة يسرد فيها لأخته آخر أخبار المصح والحوادث الطريفة والحكايات المسلية التي لا يخلو منها حتى مصح للأمراض الصدرية. وفي احدى هذه الرسائل يستدرك كافكا قائلا": "أرجو أن لا يتبادر إلى ذهنك إننا نقضي أوقاتنا هنا في ضحك متواصل ذلك لأن أجواء المصح أبعد ما تكون عن المرح."

كانت وطأة المرض القاتل – الذي لم يكن له علاج في ذلك الزمن، حيث لم تكن المضادات الحيوية قد اكتشفت بعد – تشتد عليه يوما" بعد يوم فيتد فق الدم من رئتيه غزيرا" وبمرور الوقت أصبحت رسائله جادة ومقتضبة أكثر فأكثر. وردت آخر رسالة كتبها كافكا إلى أخته من مصح (كيرليانكي) الكئيب والحزين الذي لم يعد منه إلى بيته أبدا".

عاش كافكا حياة الأغتراب الروحي عن مجتمعه ولكن من الخطأ أن نقول أن كافكا هو البطل الرئيسي لرواياته وقصصه فهو ليس السيد (K) البطل الرئيسي لرواية ((القلعة)) وهو غير جوزيف (K) في رواية ((المحاكمة)) ورسائله الأخيرة الى أخته أوتلا خير دليل على ذلك. كما أن رسائله – قبل ذلك – الى ميلينا تؤكد هذه الحقيقة.

كافكا وصيرورة الإنسان بين "التحول" و"المحاكمة"

د. حسن الحريري

يعتقد البعض أن الروائي لا يخترع الرواية، لأنها موجودة في مكان ما منذ زمن بعيد، ولا يفعل سوى الكشف عنها. وعلى إيقاع هذا الكشف، سنقرأ أدب فرانز كافكا (١٨٨٣ - ١٩٢٤)، ونسبر عوالمه "الواقعية".

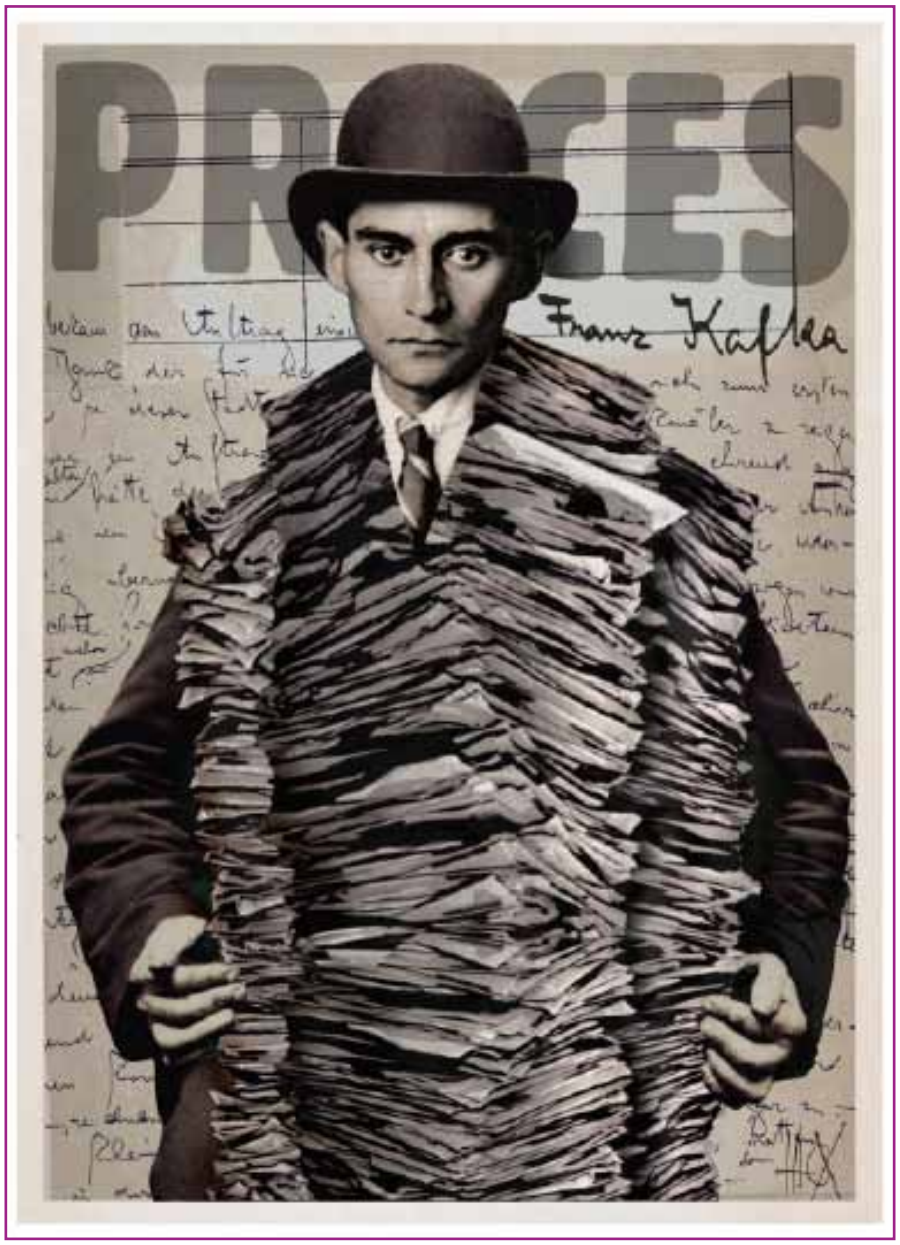

وصفت روايات كافكا بأنها نقد للمجتمع الصناعي، ولكل أشكال الاستغلال والاستلاب، والأخلاق البرجوازية، وبشكل عام، للرأسمالية وللمجتمع الحداثي. لكن المتصفح أعمال كافكا، يتجاوز هذا النمط من النقد إلى نقد أكثر جذرية للإنسان ذاته، الذي تعد الظواهر تلك، مفعولات له. بهذا المعنى، فالكافكوية تمثل، حسب ميلان كونديرا، قوة أولية كامنة في الإنسان وعالمه. وهي كامنة غير محددة تاريخيا، وترافق الإنسان حتى الأبد. على الرغم من أننا نعيش عصر القلق بامتياز، عصر اللامعنى، أو لنقل عصر غياب المعنى وانتشار العبث في كل علاقاتنا الوجودية. وهذا ما سنلمسه من خلال أدب كافكا، الذي خضع لتأويلات متعددة حد التناقض. إنه يقدم أبطال رواياته منفصلين وتائهين عما يحدث، وكأنهم داخل عالم مظلم أو متاهة، من جراء قوة الحدث وتأثيراته. ففي روايته "المحاكمة" مثلا، لا يعرف المتهم لماذا اتهم وبماذا. ومع ذلك، يتكيف مع اتهامه ويقبله. وهذا ما يجعلنا نميز بين عالمين: "عالم اليومي – الواقعي، وعالم التوجس" والتساؤل حول هذا الذي يحدث لأبطال رواياته (التحول الحيواني لغريغوار والمحاكمة العبثية لجوزيف ك...)، إنه ينظر إليهم كإمكانية إنسانية أو طريقة في الوجود، وليس كنماذج خاصة يحتذى بها داخل المجتمع. بمعنى أن المغامرات التي تشكل المادة الأولية لرواياته، تنقلنا من "عالم واقعي مألوف" إلى "عالم غريب" ننشد إليه، وكأن الواقع يفجر ذاته كطاقة من الممكنات الوجودية التي يتغير معناها. وهذا هو عالم كافكا، حيث لم يعد الإنسان إنسانا، والحيوان حيوانا، والمحاكمة محاكمة، والعدالة عدالة، والعائلة عائلة. إنه عالم غامض معتم، تتساكن فيه المتناقضات وتتجاور، ما يجعل واقعيته جديرة بالمعرفة والاكتشاف.

في روايته "التحول" (في ترجمات أخرى: المسخ)، استيقظ "غريغوار سامسا" وقد تحول في فراشه إلى حشرة حقيقية (ظهر صلب كدرع، بطن بني، قائمتان نحيلتان، إحساس بانقباضات باردة، رجف على الظهر، حكة في أعلى البطن، تغير في الصوت، صعوبة في الكلام، وعدم التحكم أحيانا في القائمتين...). تساءل "غريغوار": ماذا وقع لي؟ ليس هناك اعتراض لهذا الذي حدث، التحول وقع ويجب التعامل معه بإيجاب. إلا أن ما يميز هذا التحول أنه تم إدراكه والوعي به، وأنه واضح للعيان ولا يمكن اعتباره "حلما" أو "خيالا" أو "وهما"، بل إنه "الواقع" وكل الواقع. بهذا المعنى، فهو يمتلك قوة وجوده وقدرة الاستمرار بشكل عادي. لكن بشكل مختلف وبمعان أخرى. إن "حدث التحول" أسس لعلاقة الإنسان – الحيوان مع ذاته ومع العالم. وفتح الحدود بين عالم الإنسانية وعالم الحيوانية. ووضع الإنسان أمام مرآة الطبيعة الإنسانية ومآلاتها ومصيرها، بحيث انصب اهتمام "غريغوار" على التفكير في معنى علاقاته، وفي معنى ما يقوم به، ومعنى عمله. ويتوج هذا التفكير، برفض هذا العمل وهذا الواقع. ويقول: "فليأخذ الشيطان هذا المتجر" (سفر دائم، الأكل الرديء، صعوبة خلق صداقات...). بينما ركزت أسرته اهتمامها على تبعات غيابه عن وظيفته، التي تمس وضعهم الاقتصادي وتهدد مصالحهم المادية فقط، بمعنى الحفاظ على وضعية الاستغلال واستمرارها. إن رواية "التحول" تفجر الرؤية المتعالية والمقدسة عن الإنسان، وتفتح جروحا أخرى أصابت كيانه، إلى جانب الجروح الكسمولوجية (الطبيعية) والبيولوجية والنفسية. إنه جرح المعنى وتشظيه، والانغماس في اللامعنى. ويتمظهر ذلك من خلال فعل التحول. إذ تكمن إنسانية الإنسان في حيوانيته، بينما تكمن حيوانية الحيوان في إنسانيته. بمعنى أنه كلما اتجهنا نحو الحيوانية، كلما اقتربنا من الإنسانية، وكلما اعتقدنا أننا في قلب الإنسانية كنا في قلب الحيوانية. مع كافكا كل شيء معكوس، بحيث يخرج المعنى من اللامعنى، والواقعي من الخيالي، والوجود من العدم. وهذه الثنائيات، لا يمكن عزلها عن بعضها فهي تحمل قوتها في ارتباطاتها، لتشكل ذلك الغموض الإنساني، الذي يتأسس من خلال العلاقات التي يحددها مع ذاته والعالم والآخرين. ففي حالة "غريغوار"، لا يأتي الأذى الحقيقي من التحول في حد ذاته، بل من مفعولاته، من المجتمع، من علاقات الناس المعقدة والمحكومة بالمصالح. لذلك فهو لم يخف مما حدث له. بل مما يحدث في المتجر، كمؤسسة أو كمتاهة لإنتاج اللامعنى. فـ"كافكا" لا ينظر إلى المؤسسة بوصفها مجالا لصراع المصالح الشخصية والاجتماعية، بل يعتبرها آلية للخضوع لا علاقة لها بالمصالح. وهذا ما يجعلها غامضة وعسيرة على الفهم. فالمتجر هو عالم "غريغوار" القبلي، الذي كان يعيش فيه مستلبا بقوانينه ومنفصلا عن ذاته. أما غرفته المظلمة، فهي عالمه الخاص الذي يفكر فيه في ذاته وفي إنسانيته. فهذا "الحيوان – الإنسان"، حول هذه الغرفة المظلمة إلى "غرفة مضيئة"، حيث جعلنا نسائل إنسانيتنا من خلاله. إن هذا "التحول"، عرى كل الادعاءات وكل العلاقات والقيم، وأسقط الأقنعة التي تغلف وجودنا "الإنساني – الحيواني". فالقريب لم يعد قريبا، والأب لم يعد أبا، والأم لم تعد أما، والأخت لم تعد أختا، والأنا لم تعد أنا. لنستمع إلى ما تقوله أخت "غريغوار" لأبويها في حق أخيها: "هذه الوضعية لا يمكن أن تستمر هكذا. وإذا لم تعوا خطورة الأمر. فأنا أعي ذلك. لا أريد أن أنطق اسم أخي وأنا أتحدث عن هذا الوحش الذي يوجد هنا. سأقول لكم فقط، يجب أن نبحث عن طريقة نتخلص بواسطتها من هذا الشيء. لقد قمنا بكل ما يمكن القيام به إنسانيا من أجل معالجته وتحمله. أعتقد لا أحد سوف يلومنا". ماذا ترك لنا كافكا على لسان "غريت" شقيقة "غريغوار"؟ كيف يمكن أن نقبل هذه العدائية، هذا التنكر، هذا التشيؤ، هذا اللامعنى المؤلم، هذه الأنانية الوقحة؟ إنه يكشف لنا عن الأنا وما تحمله من صراع وتصادم بين "إنسانية – الحيوان" و"حيوانية – الإنسان".

وفي روايته "المحاكمة"، يقدم كافكا وضعا إنسانيا غامضا ومعلقا، من خلال شخصية البطل "جوزيف ك"، المتهم من دون أن يعرف طبيعة التهمة الموجهة إليه، ولا أسبابها وحيثياتها. فاللامعنى يغمر صيرورة أحداث الرواية، ابتداء من التهمة والتوقيف والاعتقال إلى الإعدام. يقول: "جوزيف ك": "أستنتج من هذه الواقعة، أنني متهم دون أن أتمكن من إيجاد أدنى خطأ يمكن تقديم اللوم لي بسببه". فحتى الموظفون الذين جاؤوا لتوقيفه، لا يعرفون شيئا عن أسباب الاعتقال. بل ينفذون الأوامر، وعليه فقط الامتثال. ومن بإمكانه تقديم توضيحات لـ"جوزيف ك" بصدد اعتقاله؟ وما طبيعة التهمة الموجهة إليه؟

ترسم المحاكمة "لوحة عبثية" للوجود الإنساني، وتجسد اللامعنى السافر الذي يخترق التجربة الإنسانية. إنه العدم الذي يتربص بالإنسان أثناء العلاقات التي يقيمها مع العالم. فـ"جوزيف ك" يعترف بأنه يجهل القانون، ويؤكد في الوقت نفسه، أنه غير مذنب. ويقول: "لست مذنبا هناك خطأ ما". إنه على يقين من وجود سلطة ما تتحمل مسؤولية ما يقع، أو أنه، كما أعتقد، ضحية جهاز بيروقراطي فاسد، يستعمل السلطة – القوة لإقامة واقع الاتهام والاعتقال والمحاكمة باسم "العدالة".

تفضح "المحاكمة" عبثية العدالة المتجسدة في لا معنى الاتهام. وتكشف عن كل أشكال الزيف التي تطبع المشتغلين في حقلها، من قضاة وموظفين ومحامين وشرطة... إنها تجعل كل إنسان يحمل في ذاته إمكانية اتهامه. أو لنقل، إنه ليس بريئا، وفي الوقت نفسه ليس مذنبا. إنه في المنزلة بين المنزلتين؟ فهذا الشرخ الوجودي للإنسان، ليس عابرا أو ظرفيا، بقدر ما هو بنية أنطولوجية تخص الكائن الإنساني في مختلف علاقات القوى التي ينسجها مع العالم، سواء أكان صالحا أو طالحا، جبانا أو قويا. فالإحساس بالذنب ملازم للكينونة الإنسانية. إن رواية "المحاكمة" ليست محاكمة لـ"جوزيف ك"، ولا هي محاكمة لوضع اجتماعي أو سياسي معين، ولا هي محاكمة لنمط فكري تم إنتاجه، ولا هي محاكمة لعصر بعينه أو ثقافة أو حضارة ما. بل هي محاكمة لـ"الإنسان" ولـ"إنسانية" الإنسان، ولصيرورته الإنسانية الحيوانية أو الحيوانية الإنسانية، التي تعري وجوده وتفضح أننا لا نعرف، ولم نعرف بعد ذواتنا.

ويلاحظ عند كافكا عموما، أنه لم يتناول المشكلات الإنسانية بشكل نظري تجريدي. أي أنه لم ينتج تصورات نظرية حول هذه القضايا، مثلما هو الأمر عند "جان بول سارتر" أو "ألبير كامو". بل كانت ورشته هي فن الرواية. فهذه الأخيرة، هي المجال العملي لكشف تناقضات الكائن الإنساني نفسه، والغموض الذي يسكنه، المتجسد في فقدان الإنسان إنسانيته، وإبراز الصيرورة الإنسانية الحيوانية، وعقم العدالة وعبثها، لكن مع ذلك قد يشكل هذا العمل أحد المفاتيح الأساسية لفهم عصرنا الراهن، أو لنقل فهم الإنسان فينا.

• عن الشرق الاوسط

ما الذي يجعل كافكا فيلسوفا وجوديا؟

علي حسين

كان يجلس كالعادة في مكانه المعتاد في المقهى، يبدو محني الظهر منهمك بالكتابة. بين الحين والآخر ينظر باتجاه النافذة المطلة على الشارع. كان في الثلاثين من عمره، يخطط لنشر مقالته الشهيرة " تعالي الأنا الموجود " في كتاب بعد ان لفتت اليها الانظار عندما نشرها في مجلة " دراسات فلسفية " عام ١٩٣٤. دخلت رفيقته سيمون دي بوفوار كانت آنذاك في السابعة والعشرين من عمرها، جلست، قال لها بطريقة توحي باكتشاف سر عظيم انه عثر على نصوص جديدة لهوسرل. كان سارتر آنذاك قد انغمس حتى اذنيه في الفلسفة الظاهراتية ومؤسسها الالماني إدموند هوسرل. تتذكر سيمون دي بوفوار كيف حفز ريمون آرون صديقه سارتر على قراءة كتابات هوسرل، فهذا فيلسوف غير تقليدي، هكذا نطق آرون وهو يتحدث بحماسة عن الظاهراتية التي تذهب الى الحياة مباشرة تُجربها لحظة بلحظة.

عندما وضعت سيمون دي بوفوار حصيلتها من الكتب والمجلات على المنضدة. قالت انها حصلت على نسخة من رواية كافكا " المحاكمة ". كان سارتر وسيمون دي بوفوار قد قرءا رواية " المسخ " في المجلة الوطنية الفرنسية: " فهمنا ان الناقد الذي وضع كافكا الى جانب جويس وبروست لم يكن مازحا " – سيمون دي بوفوار قوة العمر ترجمة محمد فاطومي – كانت وجهة نظر سارتر ان نصوص كافكا لايمكن اختصارها في تفسير واحد، وانه من غير الملائم البحث عن رموز تساعد على تاويلها، لأن هذه الاعمال تُعبرعن نظرة شمولية للعالم. تكتب سيمون دي بوفوار في مذكراتها " قوة العمر " بعد الانتهاء من قراءة المحاكمة، عن كافكا قائلة: " كان بالنسبة الينا واحدا من الكتب النادرة والرائعة التي لم نقرأ مثلها منذ زمن بعيد ". ستكتشف دي بوفوار بعد سنوات عندما اصدر سارتر روايته " الغثيان " ان " ك " بطل رواية " المحاكمة "، كان انسانا شديد الاختلاف، متطرف ويائس جدا، مثله مثل انطوان روكنتان بطل الغثيان، ففي كلتا الروايتين اتخذ البطل من محيطه العائلي مسافة تهدم النظم الانسانية، تجعله يسقط في ظلمات موحشة. كان اعجاب سارتر وسيمون دي بوفوار بكافكا جذريا منذ القراءة الاولى. يكتب سارتر ان كافكا يعلمنا كبشر كيف نحب انفسنا حتى حين نتذمر من العالم، وكيف نبقى انسانيين في وجه ابشع الهزائم واقساها، كان كافكا مثل سارتر مغرما بالاخوة كرامازوف، ووجد في ايفان رمزللتمرد الوجودي. ومثل دوستويفسكي تمت رسم صورة لكافكا تتغير على مدى الاعوام، فمرة وجودي، ومرة اخرى انسان عبثي، ووضعه كولن ويلسون في قائمة الاديب اللامنتمي، والبعض اشار الى " رسالة الى الوالد " بانها تحليل ذاتي يقترب من مدرسة التحليل النفسي، وقد وجدت " آنا فرويد " ان كافكا تمتع بشخصية مركبة وعبقرية، كانت تصيبه احيانا شكوك في نفسه تجعله يصف ذاته على انها حالة فريدة في العالم باكمله.

ينبهنا روجيه غارودي في كتابه الممتع " واقعية بلا ضفاف " – ترجمة حليم طوسون – ان اعمال كافكا هي دروس في التحليل النفسي، ويشير غارودي الى " رسالة الى الوالد " بانها تحليل نفسي واجتماعي لحياة كافكا يُذكر فيها والده بانه لم يكن عطوفا معه وكان يهدده دوما بالقول: "سأمزّقك مثلما أمزّق سمكة "، وفي الرسالة يقول كافكا بان والده كان يتمتع بالقوة، والصحة، عكسه هو الذي عاش حياته يعاني من الضعف والخوف من المجهول فالاب بالنسبة للابن كافكا، كان طاغية مستبد يفرض نفسه من خلال قوة جسده.. ويعترف كافكا حتى وهو يكتب رسالته على الآلة الكاتبة انه لم يكن بوسعه الحديث وجها لوجه مع ابيه: " ولو جزئياً. وإنني إذ أحاول هنا أن أجيبك خطياً، فإن كل ما أقوم به لن يكون سوى محاولة مبتورة، وذلك لأن الخوف وتبعاته يصدانني عنك حتى في الكتابة، ولأن جسامة الموضوع تتعدى نطاق ذاكرتي وإدراكي ".. ومع هذا بقيت الرسالة في درج كافكا لم يرسلها إلى والده، فقد اقنعته امه أن رسالته هذه تفيده في الكشف عن ذاته اكثر مما تفيد في اشعال حالة من الصدام مع والده.. لم يكن الأب يرغب في قراءة ما يكتبه ابنه، فهو في معظم الايام يبدو متعبا ما أن ينتهي من العشاء حتى يذهب الى السرير، بينما كان الفتى كافكا يشرع في الكتابة الساعة العاشرة مساء ويبقى حتى الثالثة او الرابعة فجرا، وهو يذكر في يومياته انه حاول مرة أن يقرأ احدى قصصه على والديه، فكان الاب يصغي مكرهاً، اما الام فكانت تبتسم دون أن تفهم ماذا يريد ابنها.

هل كان كافكا وجوديا؟ تجيب سيمون دي بوفوار على هذا السؤال انها وسارتر وجدا انفسهما تحت سحر الكاتب التشيكي: " دون ان نتمكن من معرفة لماذا راودنا احساس بان نصوص كافكا تهمنا بشكل خاص. انه يكشف عن مشاكلنا في مواجهة عالم دون رب ". كان كافكا على دراية تامة بكتابات كيركيغارد ودوستويفسكي، ولعل مراجعة لحياة كيركغارد سنجد اوجه الشبه بينها وبين حياة كافكا حيث عاش الاثنان علاقة معقدة مع النساء، وفشلا في الزواج،، كان كيركغارد يتغنى بعزوبيته ويرى ان تنازله عن النساء وصية ألهية، بينما كانت العزوبية بالنسبة لكافكا رمز للاغتراب، في المقابل كان كافكا يسخر من حالة التصوف التي يمثلها كيركغارد، لكنه لم يتخلى عن ايمانه يكتب في يومياته: "لا يمكن للمرء أن يقول إننا نفتقر إلى الإيمان. الحقيقة البسيطة التي نعيشها في حد ذاتها لا تقلل في قيمة الإيمان".

كان والد كافكا " هيرمان " قد نشأ في عائلة فقيرة في قرية تقع جنوب التشيك، في صباه وشبابه عمل بائعا متجولا، عاش مع عائلته التي تتكون من ثمانية افراد في بيت صغير بحجرتين، لم يدخل مدرسة لكنه تعلم ما هو ضروري من الكتابة والحساب وبعض الكلمات التي يرددها في الصلاة بعدوفاة والده –

جد كافكا – سينتقل بعائلته إلى براغ، وسيسكن عند ابن عمه ويواصل عمله بائعاً للملابس. في الثلاثين من عمره يقرر الزواج يتعرف على جولي البالغة من العمر سته وعشرون عاما، قضت سنواتها تساعد والدها في محل القماش الخاص به وتدير له حساباته، وهي نفس المهنة التي ستتوالها بعد الزواج، حيث يتمكن هيرمان من افتتاح محل لبيع الاقمشة وانواع اخرى من البضائع، وفي هذا المحل سيعمل عنده خمسة عشر عاملا اضافة الى زوجته التي كانت تتولى الامور الحسابية.. كان العمل في المحل يبدأ في الساعة الثامنة صباحا وحتى الساعة الثامنة مساء، وكانت الام تذهب في الثانية عشر ظهرا لمساعدة زوجها ولتجلس الى جانب الخزنة.. ولهذا لم يكن فرانز الصغير يرى والديه اكثر من ساعة يوميا حيث تتجمع الاسرة لتناول الغذاء ثم يسرع الاب والام بالذهاب إلى المحل، لان التفكير في ترك المحل بلا رقابة لا يسمح لهما بالاسترخاء والاستراحة، كان هذا الامر مؤلما للطفل فرانز الذي كان يرى نفسه وحيدا على الدوام لأن الام والاب كانا دائما في المحل، وبسبب غياب الام عاني فرانز من الامراض في طفولته، كان جسمه نحيلاً عكس والده، عاش طفولة مليئة بالوحدة، في مقاطع من رسالة الى والده يكتب: "كنت طفلاً عصبياً، غير انني كنت – بالمؤكد – متجهماً، كل ما هنالك أنك عاملت طفلاً بالشكل الذي خلقت انت به، بالعنف والضجيج والطبع الحاد." – ترجمة ابراهيم وطفي – سيعيش وسط عائلته اشبه بالغريب، يخبرنا في يومياته – ترجمها الى العربية خليل الشيخ – انه لم يتحدث مع والدته اكثر من عشرين كلمة في اليوم، ومع والده لم يتبادل اكثر من كلمات التحية: "ينقصني دوما حس للمشاركة في الحياة مع الاسرة".

تقترب وجودية كافكا من فلسفة دوستويفسكي، فاوجه الشبه بينهما تشمل الوعي الذي لا يرحم والضمير الصارم المنبثق عنه. مثلما تعيش الشخصيات في أعمال دوستويفسكي في غرف مجهولة المصدر وغريبة، فإن جدران قفص صاحب المحاكمة، وغرفة نوم جريجور سامسا ليست سوى جدران السجن الضيقة التي لا ترحم.

عندما بدأ كافكا الكتابة كان يحلم بعالم معزول، شديد الوحدة. في رسالة يبعثها الى ميلينا يقول فيها: "أركض في الجهات كافة أو أبقى جالساً، جامداً، كما يفعل حيوان هو فريسة اليأس في جحره". في العام ١٩٢٣ يبدأ بكتابة قصته الطويله "الجحر" والتي يبدأها بالجملة التالية: "لقد هيأت جُحري وبدا لي أنني نجحت فيه". في هذه القصة يسرد لنا كافكا حلمه بعالم معزول، سرداب محكم الغلق حيث يجلب له الطعام ويوضع خلف الباب، وما عليه إلا أن ينتقل مسافة قصيرة حتى يأخذه وياكله قبل ان يستانف نشاطه الذي لايعوقه أي احتكاك بالبشر. هذا المخلوق الذي قرر ان يبني لنفسه جُحرا ذا سراديب متشابكة، يشبه القلعة المهجورة: "اجمل شيء في جحري هو الصمت". في الوقت نفسه يوجد اعداء غير مرئيين في الجُحر وكافكا عُرف عنه دوما احساس بالرعب "لا يهددني الاعداء الخارجيون فحسب، ولكن هناك ايضا اعداء في حشايا الارض. لم ارهم مطلقا. لكنهم اسطوريون وانا اؤمن بهم".

في معظم كتاباته اعتبر كافكا ان الوجود نوع من اناع العبث، ولا يمكن الانسجام معه. والحالة الإنسانية، بالنسبة لكافكا، أبعد من كونها مأساوية أو عبثية. إنه "سخيفة". فقد ظل يؤمن أن الجنس البشري كله نتاج أحد "أيام الله السيئة". لا يوجد "معنى" لفهم حياتنا. واي معنى نحاول صياغته سينهار، يكتب صمويل بيكت ان اعمال كافكا تنبهنا إن الكاتب "ليس لديه ما يعبر به، ولا شيء يمكن التعبير عنه، ولا قوة للتعبير، ولا رغبة في التعبير". في الفصل الاول من اسطورة سيزيف يقول كافكا: "لا توجد سوى مشكلة فلسفية جادة واحدة وهي الانتحار." إنه يردد صدى قول كافكا في يومياته: "أول علامة على بداية الفهم هي الرغبة في الموت". سيرفق كامو نص "اسطورة سيزيف بمقالة بعنوان الأمل والعبث

في أعمال فرانز كافكا "تخليدًا لذكرى الكاتب الذي كان مدينا له في فلسفة العبث.

وسنجد تاثير كافكا اكثر وضوحا في رواية كامو الشهيرة "الغريب" والتي نجد فيها ميرسو لا يهتم بأي شيء. وهو يقر بأنه "فقد عادته في ملاحظة مشاعره". بدون سبب معين، يطلق النار على رجل فيقتله. ونجده يواجه صعوبة في تقديم تفسيرات، لإنقاذ حياته من الموت، فهو بشسبب الجو الحار يذهب إلى المقصلة، غير مهتم بما يجري حوله.

يستيقظ "ك" صباحاً ويرنّ جرس الهاتف وهو مايزال في سريره ليحمل له طعام الفطور، وبدلاً من الخادمة يصل مجهولون، يرتدون ثياباً عادية، لكنهم يتصرفون بسيادة تبلغ حدا ان "ك" لا يستطيع ان لايشعر بقوتهم وسلطتهم، لكنه مايزال مستغرباً وجائعاً في الوقت نفسه، ويبحث عن الخادمة فلا يجد امامه سوى رجلاً نحيلاً يرتدي رداء اسود اللون لم يكن قد رآه قط من قبل، ويقول "ك" بتهذيب: "من انت؟"، لكن الرجل تجاهل السؤال واكتفى بالقول: لقد قرعت الجرس، كنت اريد من انّا ان تحضر لي الطعام قال "ك".

منذ البداية نرى ان "ك" يعيش في حيرة مطلقة بين ضعفه المستعد للانحناء أمام الإهانة التي لاتصدق، وخوفه من الظهور مضحكاً، لكنه في النهاية يقرر ان يكون حاسماً: "لا أريد البقاء هنا، ولا ان توجهوا إلي الكلام دون ان تقدموا انفسكم."

توحي قصص كافكا بمعاني لا يمكن الوصول إليها إلا بعد عدة قراءات عدة. إذا بدت نهاياتها، أو عدم وجود نهايات، منطقية على الإطلاق، انها تقدم لنا مجموعة متنوعة من المعاني الممكنة دون تأكيد أي منها. وهذا بدوره نتيجة لوجهة نظر كافكا – التي يتقاسمها مع العديد من كتّاب القرن العشرين – بأن ذاته هي جزء من قوى متفاعلة بشكل دائم تفتقر إلى جوهر ثابت. إذا كان يجب أن يصل إلى تقدير تقريبي للموضوعية، فيمكن أن يتحقق ذلك فقط من خلال وصف العالم بلغة رمزية ومن عدد من وجهات النظر المختلفة. وبالتالي، يجب أن يظل الوصول إلى الصورة الكاملة امرا بعيدًا عن متناوله. إن مثل هذا الكون الذي لا يمكن أن يقال عنه شيء ولا يمكن مناقضته في نفس الوقت – وبنفس الوقت هو مثير للسخرية، وليس مفارقة عندما يشاهد المرء أبطال كافكا وهم يحاولون تجميع حطام كونهم يعيشون معا. في كتابه "الوجود والعدم" نجد ان سارتر يدرك جيدا تأثير الآخر في تكوين الذات. فهو يصف "الآخر" على أنه "وسيط لا غنى عنه بيني وبين العالم". يمكن القول أننا نعرف أنفسنا إلى حد كبير بما يقوله ويفكر فيه الآخرون عنا.. فانا لست وسيما إذا كان معظم الناس لا يجدونني امتلك جاذبية. وانا لست طويلا إذا كان الآخرون يحلقون فوقي. يصبح البعض الآخر هو المقياس الذي يتم قياسنا به. ومع ذلك، فإننا غالبا ما نتحدى مثل هذا المقياس: فالحدود التي وضعها الآخرون تشكل منطلقات للقفز إلى الهويات التي يتم السعي وراءها بطريقة أخرى. وهكذا، سواء اعتنقنا أو رفضنا ما يريده الآخرون لنا، لا يمكننا الهروب من التأثير الذي يمارسونه علينا.

عاش فرانز كافكا حياته مراقبا من والديه، فقد كانا والدا كافكا يكلفان بعض الاشخاص لتقصي اوضاع اي فتاة يريد كافكا الزواج منها.. كان الاب يعيب على ابنه انه لايستطيع تحمل المسؤولية، فهو برغم كونه حقوقي يعمل في مؤسسة للتامين، إلا انه لم يستخدم خبرته هذه لمساعدة والده في تجارته، الامر الذي كان يعتبره الاب عملا عدائيا، إلا ان العلاقة مع الاب تحسنت في الاشهر الاخيرة من حياة فرانز كافكا – توفي والد كافكا بعد وفاة ابنه بسبعة اعوام ١٩٣١، وتوفيت والدته عام ١٩٣٤ – ويكتب فرانز قبل يوم من وفاته رسالة الى والديه يتذكر فيها جلساتهم القليلة وكيف كان يتناول الطعام معهم.. لكنه لم يخبرهم بحالته الصحية.. كان قد كتب في ورقة صغيرة لصديقه ماكس برود، فقد منع من الكلام بسبب المرض الذي اصابه في حنجرته: "اقتلني وإلا فانت مجرم" كان يعلم أن امه لا تتحمل منظر مشاهدته لا يستطيع شرب الماء.

كانت محنة كافكا وكذلك محنة ابطاله ليست في الاذلال الذي تلقوه من عوائلهم ومجتمعهم، وانما من الشعور بالوحدة الذي لازم كافكا كما لازم معظم ابطال رواياته، ولهذا نجد ان اعمال كافكا اثارت سؤالا مهما: ما الذي يتعين على البشر فعله ليحظوا بقبول مجموعة ما، ولماذا لا يحظى البعض بالقبول؟ وهو السؤال الذي تصدّى له كافكا في رواياته وخصوصا في عمله الكبير "القصر" التي لم ينتهي منها وبقيت صفحاتها الاخيرة ترافقه حتى اليوم الاخير من حياته، الخامس من حزيران عام ١٩٢٤، وكان قبلها قد طلب من صديقه ماكس برود أن يُتلف جميع مخطوطاته. غير أن الصديق، رفض تنفيذ وصية الكاتب فرانز كافكا، وذهب في اليوم الثاني لينشر الإعلان التالي في احدى الصحف والذي جاء فيه: "توفي أمس في مشفى كيرلينغ، فرانز كافكا، كاتب الماني عاش في براغ". قلة هم من يعرفونه هنا، لأنه كان منعزلا، رجلاً حكيماً يهاب الحياة، عانى لسنوات من مرض رئوي، ومع انه كان يتلقى العلاج، غير انه كان يغذي مرضه متعمداً، ويشجعه نفسياً، كتب ذات مرة في احدى رسائله: عندما يعجز كل من القلب والروح عن تحمل العبء، تأخذ الرئتان النصف، وهكذا يصبح الحمل موزعاً بالتساوي تقريباً. كانت لديه حساسية تقارب الإعجاز ونقاء أخلاقي صارم الى أبعد حد، إلا أنه جعل مرضه يتحمل عبءَ خوفه من الحياة، كان يرى عالماً مملوءاً بشياطين لامرئية تحارب الأشخاص الضعفاء وتدمرهم. كان صافي الذهن، أحكم من أن يعيش وأضعف من أن يقاوم".

يكتب البير كامو: "ان أعمال كافكا و كيركغارد، و لكي نكون مختصرين: أعمال كل الفلاسفة و الروائيين الوجوديين، تتجه بكاملها نحو اللامعقول و نتائجه. أي إنها تصل في النهاية المطاف الى إعلان تلك الصرخة المدوية للأمل.. إن هؤلاء الكتاب يحتوون القوة الإلهية التي تلتهمهم. و يتم ذلك عن طريقي الخشوع و الأمل. لأن ((لامعقولية)) هذا الوجود تؤكد لهم، إلى حد ما واقع ما فوق الطبيعة. و إذا أوصل طريق هذه الحياة إلى الله، فهناك إذن المخرج. وهكذا يظل الدأب و العناد اللذان يكرر بهما أبطال كافكا وكيركغارد تجولاتهم هما الضمان الوحيد للقدرة النابعة من هذا الامل".

ترويض السرد الإنساني لأزمنة ما بعد كافكا

عـبـاس الـحـسـيـنـي

بدأ الأمر وكأنه مجرد مسار لكاتب، راح يكدح مجتهدا في مطبات الغموض، الغموض وحده دون غيره من أدوات القنص الروائي، وهو، السيد كافكا، الذي لم يحظ كغيره من أدباء جيله، بالتقدير في عصره.

هل كان ليهودية كافكا اثر في تحوله الباطني؟

ربما تكون هذه الإشارة غير العادلة، والتي ضمنها الناقد الإنكليـزي الشهير ذات مرة، جـون دوفر ويلسون، حول الانكفاء في الذات اليهودية واتجاهها إلى الباطنية، وهو تحليل غير دقيق وبعد الشبه عن تجليات كافكا.

نسـج فرانز كافكا حكايات طمس فيهـا الخطوط الفاصلة بين الواقعي والعبثي المراوغ والمرعب.

وهـو اخطر ما يمكن ان يتبنـاه اي كاتب، او خالق نسيج فكـري، لأحداث المهمـات الأعظم التي يتصـدى لها جميع الأنبيـاء والفلاسفـة والمفكرون، وغيرهـم، في المستحيل المتمثـل بتغـير نمط التفكـير القائـم والسائـد لشعب او مجموعة إنسانية بعينها.

عمـل كافـكا بدقة لا رحمة فيهـا، وبتفان يمكـن استدراكه عبـر رهافـة العبارة ودقـة التصوير وسعـة الأفق، حيث اقـدم واثقا على تشريح القلق، بـكل مرارته، والاغتراب، بكل تجلياته، والفكاهة السوداء بكل ثرائها الملغز،

وهي البنى الفكرية الكلاسيكية آنذاك، والتي تكمن تحت القشـرة المصقولـة بدقة متناهيـة، في المجتمـع المخملي الحديث.

لم يـك كافكا ليعلم أن رؤيته الأدبية الفريدة ستتبلور ذات يـوم في مصطلـح كـافكـوي، وهو مصطلـح قائم بذاته، وهـي كذلـك صفة نـادرة تجسد مواقع وطبيعـة الفخاخ البيروقراطيـة المشوشـة، وغـير المفهومـة، التـي يمكـن أن توقـع بوجـود الإنسـان في شرك الحـيرة وافتراءات الازمنة.

نفس بشرية

استغلـت قصصـه الانسـاق المغذيةالعميقة لعلـم النفس البشـري، والمخـاوف والأسـرار الكونية التـي تجاوزت الزمن والثقافة.

تاريخانيـة كافكا لا تشبه تاريخانية هيغل وفيورباخ، انه يحـاور التاريخ في مديـات قصيرة المـدى وباستحضار تواريـخ أخرى كما في ذاكرة المسخ، ليحيلها إلى مشرحة الواقع ممزقا إياها بمشـرط الغواية والعبث المؤقت، انه مسرح متفاوت القيمة لكنه جسور ومعبر ومتواصل.

كافـكا كان يمثـل التحـول، الـذي لا مفـر منـه لجريجور سامسا، بطل كافكا المنهزم والممسوخ إلى صرصور،

انـه البطـل التراجيدي الـذي لم ولن يتوقف عـن العويل شعريـا كما في هاملت و زيفاكـو ... حيث تكون السلطة مشرطـا علـى اللسـان، والمقصلـة قبلة عاشقـة على رقبة

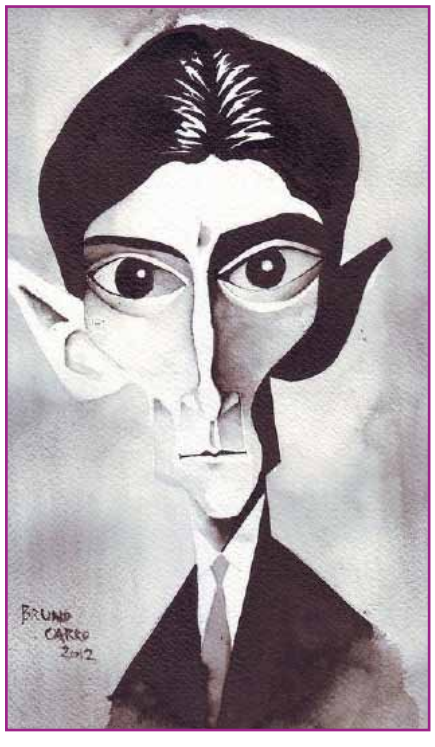

الضحية.

وقد استمر تأثير كافـكا، كما تنبأ له كثيرون في التحول، وشـق طريـق السرد الغامـض ببطء عبر بوابـة مدارس تيارات الـلا وعي الأدبية، والتي ضمنتها شروحات كلود ليفي شتراوس فيما بعد ضمن الحركة البنيوية.

والملفـت ان جميـع الأدباء والشعراء وارباب الكتابة من الذيـن جاءوا بعـد الابتـكار الكافكوي، وجـدوا أنفسهم محاصريـن في دهاليـز رؤيتـه العالميـة الغريبـة، حيث الحدس الثاقب، والتدقيـق شبه الممـل في التفاصيل من الهمس والسمـع والإنصـات والتأفف والتوبيـخ الدائم للـذات والحـوار الباطنـي وبشـكل مخيف، حتـى ولوج مراحـل الاذعـان للنص ومـرارات اعـادة فهـم المأسـاة الإنسانيـة، ومن ثم إحالتهـا إلى مسارها الحقيقي، وبات المؤلفـون بعـد مرحلـة كافكا غـير قادرين علـى التخلص مـن لوثتـه المهيمنـة، في السرد الخـارج علـى المسارات التقليدية، او الأخاذ عبر تخوم اللغة المفخخة.

تبنـى الوجوديون من أمثال سارتـر وكامو ودي بوفوار وريجيـس دوبريـه ضمـن جهـود كافـكا في الطروحات الإنسانيـة المحمومـة والبحـث عـن المعنـى الحقيقـي والخلاص الأبدي من الشعور المثقل بالذنب والخطيئة المتبناة، تجاه التجـاوزات غير المبررة على جوهر الذات الإنسانية التي اقترفت مطلع القرن التاسع عشر وما تلاه من ثـورات تكنولوجية عمقت الهوة بـين الإنسان والآلة بصفتها اداة إبادة وقتل وفناء.

كان المجتمـع الغربي يزداد توحشـا وتطرفا وابتعادا عن المحـاور والقيـم الإنسانيـة، ليفاقـم غربة الأنـى المقيدة بمسـارات السلطـة والمؤسسـات والأنظمـة القاسية في مساراتهـا الضاغطـة بشـدة علـى الأحـلام والتطلعـات الإنسانية.

ومـن كامـو إلى سارتر، كانت بصمة كافـكا تنتقل كعلامة دالـة على تأملاتهـم في العبـث، والتجريـد والإحالة إلى الغامض.

الواقعيـون السحريـون مـن اللاتينيـين، مثـل غابرييل جارسيا ماركيز وميخيـل إستورياس وجورج امادو، قد نسجـوا ايضاً خيوطا كافكاوية ضمن تجليات الاستعارة والاغتراب النفسي وإعادة تحليل القوالب السردية، في نسيجهـم من الأدب الـذي يصنف على انـه مخيال مترف ضمن تيارات اللا واقعية السحرية.

السحرية الواقعية نفسها التي عمل عليها غابريل غارسيا في روايتـه مائـة عـام مـن العزلـة، وخريـف البطريارك وليس لدى الكولونيل مـن يراسله وكذلك في رواية حب في زمـن الكوليرا، التي استهوت هوليـوود وقد جسدها الممثل الكولومبي خافيير باربديم.

وفي عصـر مـا بعد الحداثـة، أصبحـت مراوغـات كافكا الأسلوبيـة بمثابة خارطة طريق لأولئـك الذين يرسمون تضاريـس الوجود غـير المؤكدة. حيث قـام مؤلفون مثل توماس بينشـون، وهاروكي موراكامي، وبـول أوستر برسـم لوحاتهم السريالية الخاصة بهم، مشوهين الواقع من خلال عدسات كافكاويـة واضحة المعالم، حتى أصبح من الصعب التمييز بين العادي والاستثنائي.

عجز كوني

مـن نضـال الفرد ضـد الأنظمـة اللاإنسانيـة، إلى عجزنا الكـوني في مواجهـة ألغـاز الحيـاة، أصبـح مصطلـح الكافكاوي، اختصارًا للمحنة الوجودية.

الرجـل الملهـم الـذي افتتـح مسيرتـه بقصـص كوميدية مظلمـة لتناول سيرة رجـل عادي، عادي حـد التمرد على مـا اعتاده من ظـروف مؤسفة تكاد تتضخـم لتتحول إلى عامـل تأثير مهـول في عواقبه – حيث يخصـص للحالة الإنسانيـة سريرهـا الفصحـي الفكـري ويـكاد يركب لها عقاقير سامة ومن ثم يدفنها في الضمير الإنساني

لقـد أصبح الغامـض واضحًا، والواضـح غامضا كامرأة تتلـوى من الموت لـذة، ولن تكـون أبدا أفعـى، او كسمو وشمـوخ حضارة اقامها النبلاء على دماء وعظام المسوخ البشرية.

ولم يعـد الأدب بعـد السيد كمـا كان عليه مـن قبل، مجرد حكـم وسير ذاتيـة لاناس مترفـين وسعـداء لا يفصلهم عـن السعـادة سوى عبـور جسر صغـير، او الانقضاض علـى طاغية بليـد، الزمـن الكافكوي هو الزمـن الحقيقي لولادة الاسى الباطني، الاسى الإنساني الذي لا يرى، ولا يسترد، ولا يكشف عن ضعفه.

سيرة ساخرة لكافكا في الذكرى المئوية لرحيله

عـــــارف حـمـزة

أصـدرت دار زوركامـب الألمانيـة كتاب "كافكا كاملاً"، مقدمـة الكتاب بأنـه "ليس هناك أجمل مـن تكريم كافكا بسـيرة كوميدية في ذكـرى رحيله". والمقصـود بكافكا كامـلاً ليـس فقـط سـيرة كافـكا كشخـص وكصديـق وكحبيـب وكأخ، بل كذلك كرسـام وصاحب نكتة، ولكن كذلـك كسيرة عن والده هرمان كافكا، الذي أثر كثيراً في حيـاة صاحب روايـة "المسخ". حيـث كان والده، الذي عمل جزاراً وفق الديانـة اليهودية، ذا مزاج سيئ بشكل دائـم. وتتداخل السيرة في سـير عائلة كافكا وأصدقائه القلائـل وحبيباته، وشغفه الجنسي الغريب، وهلعه من الفشل الجنسي.

وهذا الكتاب يقدم كذلك، كما في كثير من الكتب السابقة التـي صـدرت في عدة لغـات وطبعات، رسومـات كافكا وتقنياتـه في الرسـم، ومحاولة فهـم دواخله ومشكلاته النفسيـة، إذ إن الكاتـب التشيكـي الشهـير فرانز كافكا (١٨٨٣ – ١٩٢٤) لم يكـن ناثراً فحسب، بل كان رساماً، وكان يحـب أن ينظـر إليـه كرسام معترف بـه. ولم يكن سوداوياً تمامـاً، وذلـك ما جعـل مصطلـح "كافكاوي" يـندرج في النقـد الأدبـي، جامعـاً بـين السوداويـة والتراجيديـا والسخريـة السـوداء، بـل كان يحـب السخريـة وكذلك النكتة. بل إن هناك كثيراً من مقولاته، القائمـة علـى التضـاد، التي تشـي بالسخريـة العالية، وتميزه ككاتب ساخر.

كان كافـكا شخصاً شغوفاً بالرسـم، وليس بكتابة النثر فحسـب. ومن خلال إحدى رسائلـه إلى خطيبته فيليس بـاور، التي تعود لعام ١٩١٣، يقول لها كافكا: "أنت، لقد كنـت رسامـاً عظيماً ذات يـوم". صحيح أنـه يكتب هذه الجملة نصف ساخـر، ولكن النصف الآخر يشي بفخره برسوماته، وبأنه كان راضياً عن رسوماته تلك.

ولم تكـن رسومات كافكا تذهب لتصـور أجواء رواياته وقصصـه، هـو الـذي أراد مـن صديقـه ماكس بـرود أن يتخلـص مـن جميـع نصوصـه بعـد رحيلـه لسـوء التغذيـة والجوع بسـبب مرضه بالسـل، ولكن، لحسن الحـظ، خانه برود، تذهب لتصويـر شخصيات يتخيلها ليرسمهـا لا ليكتبهـا. أو شخصيـات تأتيـه في الأحلام، وهـي تستعمل وقتها في صنع قفص لنفسها، ثم تسكن ذلـك القفص وترتاح فيه. لكنها فجـأة تريد التخلص من "راحـة تلك الأقفاص" فتعيش آلام التخلص منها. هي حكايات، ربما، يقدمها كافكا من طريق الرسم.

أمـا رسومـات شخصيـات رواياتـه وقصصـه، وكذلك شخصـه هـو، فقـد صـدرت في عشـرات الكتـب، ولكن من رسامـين آخريـن، رسمـوا "المحاكمـة" و"ساسما" و"كارل" و"الوقـاد" والنسـاء الكثـيرات، المعروفـات وغير المعروفات، في حياته.

وفي هـذا الكتـاب/ السـيرة الساخـرة يمـزج الكاتـب النمسـوي نيكولاس مالـر رسومات كافـكا، ورسوماته هـو، طـوال نص يتدفق بـلا نهاية. وذكاء مالـر يبدأ من افتتاحية الكتاب: "اعتبرني حلماً".

هذه الافتتاحيـة، التي لا يشرحها مالـر، حدثت في بيت ماكـس بـرود، عندما كان كافـكا عنده في زيـارة. وكان والد برود نائماً علـى الكنبة في قيلولة الظهيرة، ويبدو أن نقاش كافـكا وبـرود أيقظـه. فسـار إليه كافـكا على أطراف أصابعـه، وهمس في أذنه "من فضلك، اعتبرني حلماً"، وكأنـه يغنيهـا لـه ليعـود إلى النوم، فنـام على همس كافكا، ولكـن المقولة تشي بأعمال كافكا نفسها، إذ إن النوم أو الاستيقاظ منه أو محاولة النوم أو الأحلام والكوابيس أو مجرد الاستلقاء، كانت تشكل البداية في نصوص كافكا وفي كتابتها.

هـذه السـيرة الساخـرة لكافـكا جمعها وحررهـا رسام الكاريكاتـير، وكاتـب القصـص المصـورة، النمسـوي نيكولاس مالـر (ت ١٩٦٩)، من مصادر متعـددة، أشار إليهـا في فهرس الكتـاب. فالكتابة بأحرف عادية هي من تأليـف وسرد مالر، بينما المكتوبـة بأحرف مائلة تخص كافـكا، سـواء ما جـاء في رواياتـه وقصصـه ومقالاته ورسائله ويومياتـه، وكذلك من المقابلات التي جرت مع أصدقائـه وخطيباتـه بعد رحيله، بمعنـى أن مالر بحث وقـرأ في مجلدات كثيرة ومتنوعـة، وأنفق زمناً لا بأس به، قبل أن يكثفها ويضعها في كتاب من ١١٥ صفحة.

يبـدأ الكتاب من بـراغ في عام ١٨٥٢، وهـو العام الذي ولد فيـه والد كافكا، ولكـن البداية هذه كتبهـا مالر على غـرار افتتاحيات كافكا. "رابـي لوف (وهو حاخام كبير في بـراغ ذلك الوقـت) رجل ماهر. طلب اليـوم كمية من الطـين، وشـكّل منه كائنـاً، وسرعان ما صـار يشتم ذلك الكائن ويصرخ فيه بغضـب، وبعدها بقليل دبت الحياة في ذلـك الكائن، ذلك الكائـن يحمل اسمـاً أيضاً: هرمان كافـكا". بينمـا ينتهي الكتـاب بحقائـق مأسوية تخص كافـكا وأقرب الناس إليه. "في يـوم الثلاثاء، الثالث من شهـر يوليو (تموز) لعام ١٩٢٤، مـات فرانز كافكا وهو في الـ٤٠ من عمره. الكثيرات مـن السيدات المهمات في حياة كافكا أصبحن ضحايا للنازية. جميع شقيقاته متن في غرف الغـاز (..) توفيت ميلينا جيسينسكا (خطيبته الأخـيرة) كسجينـة سياسيـة في (معسكـر الاعتقـال الألماني) رافيينسـبروك. عاشت (خطيبته) فاليس باور في الولايـات المتحـدة الأميركية، حتـى رحيلها في عام ١٩٦٠".

هذه النهايات المأسوية لشقيقات كافكا، وكذلك لخطيبته الأقـرب إلى قلبـه ميلينـا، لم يشهدهـا صاحـب روايـة "الحكـم أو المحاكمـة"، لأنهـا حدثت بعـد رحيله. وإلا يصعـب على المرء تخيل حياة كافـكا، وكتاباته، بعد تلك المآسـي الكـبرى. لم يكمـل حياتـه ليشهد ذلـك، مثلما لم يكمل رواياته الثلاث الشهيرة.

وبـين البداية والنهايـة نتعرف على حيـاة كافكا، سواء مـن خلال نص مالر أو من خـلال رسائل كافكا وقصصه ومقابـلات أصدقائـه ومعارفـه، التي كانت تبـدو حياة بريـة بشـدة، ويحتـاج كافـكا فيهـا، ليس فقـط كتاباته ورسوماتـه، إلى تشخيـص نفسـي عـالي المسـتوى، لمعرفـة الأسبـاب التـي كانـت تدفـع كافـكا إلى بيـوت الدعارة، والاهتمام بالصور الإباحية وكتبها، والتعرف والارتبـاط بكثـير مـن النسـاء، المختلفـات في درجـة التعليـم وكذلك القادمات من طبقـات اجتماعية مختلفة، من دون الزواج بأي واحدة منهن، وكذلك دوافع قراراته المأسويـة بحرق أكثر من ٩٠ في المئة من كتاباته، عندما كان يعيشـن في برلـين. وهـذه التفاصيل بالـذات، حول رغباتـه وعلاقاته النسائية، يمكن العثـور عليها، بشكل مفصل واستطرادي واستنتاجي، في كتب سيرته، وهي كتب حاول عشـرات المؤلفين تتبع حيـاة كافكا والكتابة عنه، لتأليف سيرة مرضية وشاملة عن صاحب "القلعة"، ومنها ثلاثة كتب في السـيرة كتبها الصحافي والباحث الأدبـي الألماني راينر شتـاخ (١٩٥١) بشكل متسلسل وهي "كافكا، أعوام القرارات" (٢٠٠٢) و"كافكا، أعوام الوعي" (٢٠٠٨) و"كافكا، الأعوام المبكرة" (٢٠١٤).

كتـاب "كافكا كامـلاً" يبدو مثـل سيرة عائليـة، وسيرة شخصيـة، وهو يبتعد عن السيرة الأدبية بقدر الإمكان، وبذلك يكون أقرب إلى الأفـكار الكبيرة وليس لتفاصيل الكتـب. فعلـى سبيل المثال، مـن المعـروف أن كافكا كان يهودياً، ولكنه لم يكن صهيونياً. وترد ضمن الكتاب، مع رسم كاريكاتيري، مقولة لكافكا، التي قالها لبرود وذكرها في يومياته، وهي عبارة عن سؤال منه لنفسه، وجواب منه لنفسه: "ما الذي يجمعني باليهود؟ (الجواب) هناك بالـكاد ما يجمعني بنفسي"، ولكن من دون الخوض في تفاصيـل ذلـك من قبل مالـر. أو مثل "أعتقـد أنني، وفي الوقـت المناسـب، اكتشفت من هـو مختلـس النظر من بـين الحيوانات". أو "يجب وضع عنوان جديد للقصة: جوزفين، المغنية، أو شعب الفئران".

وعندما يتحـدث الكتاب عن فشل علاقـة كافكا بخطيبته ميلينـا، وقـد كتـب لهـا رسائـل كثـيرة بعـد انفصالهما وزواجها من غيره، يفسرها بطريقة ساخرة: "كافكا كان مفتونـاً بميلينـا. أشياء عديدة وقفت ضـد هذه العلاقة، ليس فقـط زواجها، بل لأن كافـكا كان يكره فيينا، بينما كانت ميلينا تعيش هناك"!

• عن الاندبندنت عربية

manarat

www.almadasupplements.com

رئيس مجلس الإدارة
رئيس التحرير
فخري كريم

رئيس التحرير التنفيذي
علي حسين

سكرتير التحرير
رفعة عبد الرزاق

منارات

طبعت بمطابع مؤسسة المدى للاعلام والثقافة والفنون

محاكمة كافكا

صـالـح الـــرزوق

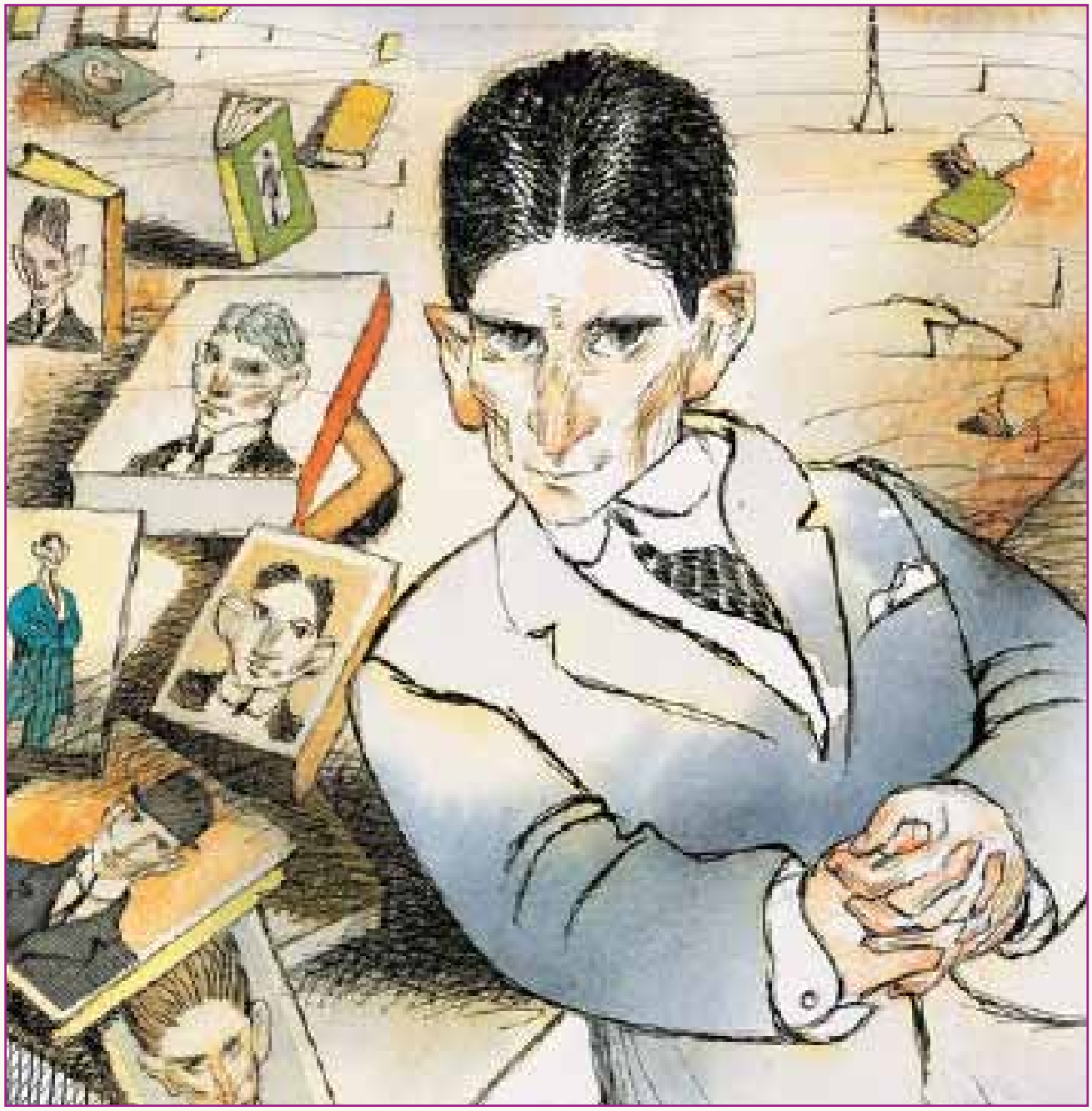

مع أن كافكا كاتب ميتافيزيقي، لكن لا تستطيع أن تضعه في صف أحد الأديان المعروفة. ومنذ روايته "القضية" أول عمل أساسي له، وهو مشغول بقضايا الإنسان البسيط والهامشي الذي يعيش في عالم يحكمه الذنب واللامعقول. ومهما حاول جورج لوكاتش أن يكشف عن أوجه الشبه بين كافكا والاتجاه النضالي للسريالية، تبقى مؤلفاته دليلا على استسلامه. ورؤية من هذا النوع لا تؤهل أحدا ليحمل سيف الحق، ويدافع به عن عالم شوهته الحروب ورؤوس الأموال وسياسات التوسع، فكافكا، في كل كتاباته، ساخط على عالم القضاء والمحاكم والقوانين، وسعيد بالعدالة الإلهية التي حرمت طبقات المجتمع من التكافؤ، وقد لاحظ دولوز وغوتاري هذه الظاهرة، وأكدا أنها نتيجة لعدة أسباب.

الأولى أنه يهودي في مجتمع مسيحي. الثانية أنه تشيكي ويكتب باللغة الألمانية. والثالثة والأخيرة تسييس عقدة أوديب، وتفسيره لها بضوء النشاط الرأسمالي لمجتمع السوق. ولذلك أصبح كافكا صوتا يعبر عن عذاب وأوجاع الأقليات، أو كما ورد في عنوان كتاب الثنائي الفرنسي: رمزا للأدب المغمور أو الصغير.

لكن هذا لا يمنع أنه كتب بلغة استعمار قوي ومزدهر، يشمل مكان إقامته، براغ، ومكان نشاطه اللغوي ألمانيا، فالطرفان (الأرض واللغة) كانا ضمن ما يعرف حينذاك بالمملكة البروسية، التي تفككت نتيجة حرب عام ١٩١٨، ولذلك تخلف عند كافكا إحساس بالفضاء المفتوح، أو فضاء بحدود متحركة. وعبّر عن هذه الظاهرة فنيا بالهرب من الواقع الفعلي إلى واقع المعايشة النفسية (عالم ليلي تسوده كوابيس مرعبة وأحلام ينقصها التفاؤل) ووجد المعادل الموضوعي لهذا المحتوى بشكل متحول (لا هو رواية كتل نموذجية – على طريقة ديكنز، كما يقول دولوز وغوتاري، ولا هو رواية محاكاة، واختار الشكل السائل الذي يتخلى عن شرط القوام والصورة – كما في "المسخ" التي تحول فيها سامسا إلى صرصار، أو أنه تنازل عن شرط الإنسان النهاري لمنفعة شخصيات ليلية غامضة غير واضحة المعالم، وتقتات على نفسها وتعيش معظم حياتها في أنفاق وقبور، بمعنى آخر أوجد نسخة مكيافيلية من مخلوق اجتمع فيه حب الذات – ليس بالمعنى النرجسي لكن بسبب الخشية من الآخر– والتآكل. فهو يقتات على نفسه وليس من الطبيعة، بلغة أوضح كان إنسان كافكا من الكائنات الرمية التي تعتاش على نفسها وليس على البقايا. وإذا رأى دولوز وغوتاري أن مثل هذا الشخص الضعيف يمتلك عدة رؤوس وأطراف، وأطلقا على هذه الظاهرة اسم إنسان الرايزوم (الجذمور) من الأجدى أن نقول إنه إنسان أميبي ينتمي لعصر الحداثة السائلة، أو ما بعد الحداثة، فهو شخص وهمي، ولا يمكنه حتى أن يتعرف على نفسه، ويقودنا ذلك إلى تهمة طالما طاردته، وهي أنه حامل ومبشر بالإمبريالية الصهيونية، وكان الدليل على ذلك قصته البسيطة "بنات آوى وعرب".

وهي لوحة تمتزج فيها كل مكونات ما قبل السرد – من خرافة وأمثولات وحكايات شعبية. ويستغلها لذم أعرابي تصادف أن داهمه الليل وسط صحراء تأوي إليها حيوانات بنات آوى. لكن إذا وضعنا هذا العمل المحدود أمام عمل أساسي وهو "المسخ" نستطيع أن نجزم أن خيال كافكا لا يفرق بين شخصياته، وهي كلها متساوية عنده أمام غدر وقسوة القدر. وما يدل على الجفاف والتجبر في صورة الصحراء، لا يختلف عن المصير المحزن الذي انحدر إليه "سامسا".

وتهالك إسرائيل على اقتناء أرشيف كافكا لا يعني أنه كاتب ملتزم بقضية دولة – الأمة. وخذ حالة طاغور، على سبيل المثال، مع أنه بنغالي، لم نسمع عنه أنه تغنى ببنغلاديش، أو دعا لاستقلالها عن الهند وإقامة وطن قومي للبنغاليين على أراضيها.

وإذا كانت بنات آوى رميات ضخمة، فإن الصرصار حشرة رمية صغيرة أيضا، ويكفيها الفتات. وفي الحالتين نكون أمام مشكلة إنسان ملقى خارج نطاق الرحمة الإلهية والتعاطف البشري. وهذا هو حال بقية أعماله كلها. مثل جوزيف كاف في "القضية" الذي يصوره على هيئة إنسان ضائع في سراديب وأنفاق قدره الشخصي. ومثل كاف في "القصر" الذي لا يختلف عن أي بورجوازي كادح صغير يقف على أعتاب قصر منيف. ولا تخلو كل أعمال كافكا من هذه الفلسفة التي يتحكم بها عاملان اثنان: الشعور بالدونية والانتظار المضجر، ولذلك هو لا ينتظر شيئا خارقا، بالعكس يتنبأ دوما بحروب مؤهلة لحصد الأرواح وتهجير موجات من البشر. ومع أن كافكا ليس كاتبا مهجريا، فهو اغترابي بكل معنى الكلمة. ولا أعتقد أنه يوجد فرق أساسي بين الإحساس بالمجتمع الغريب والمكان الغريب. وإذا كانت يهوديته غير مثبتة وليست واضحة، من الأولى أن ننفي عنه فكرة صهيونيته، ولديّ عدة قرائن.

أولا. حديثه عن البيت اليهودي، في رسائله إلى خطيبته فيليس، لا يتعدى الكلام عن مأوى يوفر للمحتاجين الرعاية والإحساس المفقود بالأمان، ولهذا المعنى يقول لها برسالة مؤرخة في ٢٩ تموز/يوليو عام ١٩١٦: "ما يهمني ليس الفكرة الصهيونية. بل ذاك الشيء تحديدا". (يقصد بيت الخدمات اليهودية في براغ). ويضيف في رسالة مؤرخة في ١١ أيلول/سبتمبر ١٩١٦: "العنصر الإنساني هو الأساس. العنصر الإنساني فقط". ثم يتابع في رسالة بتاريخ ١٢ سبتمبر ١٩١٦ "إذا أدركت أنني لست صهيونيا لن يقلقني هذا الأمر".

كما أنه في كل كتاباته، والكلام الآن للأمريكي ليسلي فيدلر، ينظر غربا وليس شرقا نحو سيناء لينذكرنا بمأساة خروج اليهود من مصر. كما أنه يهتم غالبا بمأساة الإنسان المفرد النمطي الأعزل وتناقضات حياته الرأسمالية الحديثة التي سلبت منه طفولته الأولى ورومانسية الإحساس بها.

ثانيا. مع أن ما سبق لا يخلو من الانتقائية لا توجد تصريحات جدية تنقضه أو تخفف من معناه الواضح، وهو فصل الحياة الوجدانية والروحية عن النشاط الدعوي والأيديولوجي، وإذا قارب كافكا فكرة الوطن القومي لليهود، فقد كان ذلك بحدود التفكير الاجتماعي. بمعنى أنه لم يؤمن بدواعي إنشاء دولة وطنية، واكتفى بتصورات عن بيت صغير أو حي في مدينة، ولا يمكن لكاتب متحمس للفكرة الصهيونية أن يتناولها، وهي في أوج ازدهارها، بهذا النحو السطحي والباهت، حتى إن جوديت بتلر نقلت عن يومياته المؤرخة عام ١٩١٤ قوله: "ما الذي يجمعني باليهود؟ بالكاد لديّ ما أشترك به مع نفسي". ثم تنقل عنه سؤالا يطرحه أمام الجميع بصيغة التعجب: "اليهود قومي؟ وهل لي قوم أنتمي لهم".

ثالثا. الإيمان بالأرض يستوجب الاهتمام بالفكر الرحماني أو تجسيد صور الأم بكل مراحلها، منذ الكدح في خدمة البيت – العائلة، وحتى التفاني في سبيل الأب – الإله، والاستماتة برعاية الابن – الرعية. وهذه إحدى أهم صور الأرض/الأم، منبع الخصوبة، ومسقط الرأس، ومكان الدفن بعد الممات. فالأرض سرير لحضانة المولود ولحماية الميت الذي لا يمتلك حق الدفاع عن النفس. لكن لا يوجد أي عناية من كافكا بأمه. وفي كل أعماله اهتم بصور نساء يشاركهن السرير، لكن ليس أمهات – زوجات ومربيات. وزد على ذلك أنه ترك لنا تراثا ضخما من الرسائل التي وجهها إلى أبيه وإلى خطيبته وأخته، ولم يكن بينها بند خاص بمراسلة أمه. وربما كانت الأم أكثر إنسان تنكر له، حتى إننا علمنا أشياء كثيرة عن والده وأخته ومحبوباته، وترك أمه في جيب مجهول أو ملف أسود.

وتهالك إسرائيل على اقتناء أرشيف كافكا لا يعني أنه كاتب ملتزم بقضية دولة – الأمة. وخذ حالة طاغور، على سبيل المثال، مع أنه بنغالي، لم نسمع عنه أنه تغنى ببنغلاديش، أو دعا لاستقلالها عن الهند وإقامة وطن قومي للبنغاليين على أراضيها. بالعكس كانت حساسية طاغور الشعرية عابرة للأجناس والأعراق، ولم يكن يرى في كل كتاباته إلا ما يساعد على الاندماج والتعايش.

• عن القدس العربي